

تصدر عن «دار النشر العربية للدراسات والتوثيق» كل شهرين
السنة الثامنة والثلاثون - المجلد ٤٣ - العدد ٢٩١ - كانون الثاني- شباط ٢٠١٨م الموافق ربيع الثاني- جمادى الأولى ١٤٣٩هـ

رئيس التحرير والمدير المسؤول:
فاروق البربير

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD
Vol: 43. No. 291. JAN - FEB 2018

EDITED BY: FARUK BARBIR

Periodical Illustrated Magazine Published From Sadat St. - Smith Bldg.
Tel: 961-1-742007 / 744333 - Fax: 961-1-742007
e-mail: tarikh-alarab@live.com

Annual Subcription: US$ 175 (Including $25 for Additional Airmail Charges)
Mail All Communication, Including Subscriptions to:

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD
P.O.Box: 11-5905 Riad Solh, Beirut 11072200- Lebanon

الاشتراكات

❖ في لبنان:
للأفراد .... ٥٠ $
للمؤسسات .... ١٠٠ $
❖ العالم العربي:
للأفراد .... ٧٥ $
للمؤسسات .... ١٥٠ $
❖ خارج العالم العربي
للأفراد .... ١٠٠ $
للمؤسسات .... ١٧٥ $
❖ اشتراك تشجيعي .... ٥٠٠٠ $
❖ مجلدات السنوات ٣٦ (٣٩ مجلداً) ٣٠٠٠ $
❖ سعر النسخة .... ١٠ $
❖ تدفع قيمة الاشتراكات مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية باسم مجلة «تاريخ العرب والعالم».

❖ المراسلات

الحمراء- شارع السادات - بناية سوبر ماركت «سميث» - ص.ب: ١١- ٥٩٠٥، رياض الصلح، بيروت، ١١٠٧٢٢٠٠- لبنان

تلفون: ٧٤٤٣٣٣/ ٧٤٢٠٠٧ - ١- ٩٦١

فاكس: ٧٤٢٠٠٧ - ١- ٩٦١

❖ التوزيع

الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

❖ الإنتاج

مطبعة المتوسط ش.م.م.

رحالة عرب يكتبون عن أوروبا

اكتشاف الآخر ومعرفة الذات

بربارة فنكلر
ترجمة: حسين الموزاني

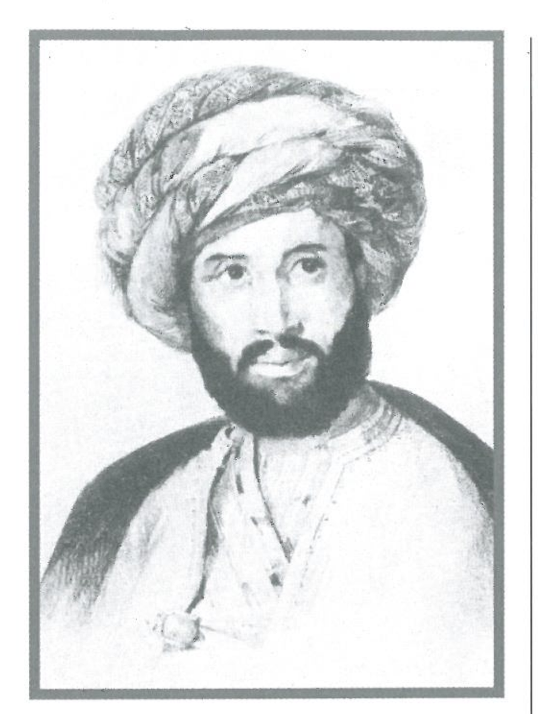
إبّان القرن التاسع عشر ازداد بشكل مطّرد عدد الأشخاص الذين قدموا من الشرق الأوسط لزيارة أوروبا وكان الرحّالة العرب غالباً ما يتصرفون وفقاً للإطار الديني والثقافي الإسلامي في زمن ما قبل الحداثة، فكان المخطط الإسلامي الكلاسيكي يقوم على أساس "الرحلة في طلب العلم"، وهو مستمد من ثقافة الحديث النبوي الشريف الذي ورد فيه قول للرسول (ص) يناشد فيه المؤمنين طلب العلم "حتّى لو كان في الصين".

ولعلّ الرحالة القدماء لم يروا في ذلك محفزاً لاستطلاع شمال المعمورة وحتى نهاية العصر الأوروبي الوسيط، أي ذروة ازدهار الثقافة العربية الكلاسيكية، يمكن ملاحظة عدم الاهتمام، التام تقريباً، بزيارة المناطق الشمالية من أوروبا وآسيا – باعتبار أن سكّانها غير متحضرين وأن مناخها فاسد وبدا للعرب أنهم لم يتوقعوا ما هو جدير بالرؤية والمعرفة هناك لكن حتى بعد ذلك الوقت كان الكثير من العرب يتجنبون السفر إلى أوروبا التي كان حكّامها وشعوبها لم يعرفوا بروح التسامح إزاء ذوي المعتقدات الأخرى، لا سيما بعد حملات التطهير ضد المسلمين هناك وبعد إطلالة القرن التاسع عشر بدأ العرب يرحلون إلى أوروبا بصورة متزايدة، فأدمج العالم العربي بالنظام الدولي العالمي وأصبح جزءاً من الاقتصاد الشامل وأدت حملة نابليون في مصر ١٧٩٨ ومن ثمّ احتلالها الذي دام ثلاث سنوات وكذلك البعثات التبشرية العديدة في سوريا ولبنان وفلسطين، وبالأخص تأسيس المعاهد التعليمية، ذلك كلّه أدى إلى الاتصال المباشر والفعّال مع الأوروبيين في ذلك العصر وعلى هذا النحو

اتضح التفوق العلمي والتقني لأوروبا، ولا سيما في الميدان العسكري، وتحولت أوروبا إلى أنموذج يحتذى به.

وكانت الرحلة إلى أوروبا تعني عادة في ذلك الوقت رحلة إلى باريس التي كانت تعتبر من قبل الطرفين العربي الأوروبي آنذاك "عاصمة القرن التاسع عشر"، حسب تعبير فالتر بنيامين، أو مدينة الضوء أو الأنوار وكانت أهداف هذه الرحلة وظروفها تتفاوت تفاوتاً كلياً إلى حدّ ما ففي مصر كان الوالي محمد علي (حكم من ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨) ومن أعقبه في الحكم يبعثون الرجال الشبّان ضمن بعثات دراسية إلى أوروبا، بدءاً من عشرينات القرن التاسع عشر وكان الغرض من ذلك هو أن يحلّوا باعتبارهم مصريين وقد تخصصوا في أوروبا محلّ الخبراء الأوروبيين الذين جلبوا منذ زمن لردم الهوّة في مجال التخصصات العلمية المتنوعة بين مصر أوروبا وعلى العكس من ذلك في لبنان حيث كان معظم المسافرين يأتون إلى أوروبا على أساس فردي لغرض الدراسة أو التجارة أو العلاج وكان البعض منهم يدعى إلى أوروبا باعتباره معلم لغة أو مترجماً وفي نهاية القرن التاسع عشر كان المرء يسافر إلى أوروبا لمشاهدة "الأحداث" العالمية مثل مؤتمرات المستشرقين أو المعارض الدولية التي كانت تقام في أماكن مختلفة.

كان "اكتشاف الآخر" يهدف دائماً إلى معرفة الذات أيضاً كذلك الثقافة الذاتية والتقاليد وموقعها في العالم آنذاك، فكانت الرحلات إلى أوروبا الوسيلة المباشرة



❑ رفاعة الطهطاوي

والمهمة للتعرف على الحضارة الأوروبية، فدوّن العديد من هؤلاء المسافرين تجاربهم وانطباعاتهم التي تولدت أثناء تلك الرحلات وكان هدف هذه التقارير ومغزاها عادة هو إبلاغ المعرفة التي حصل عليها المؤلفون في أوروبا لأبناء بلدهم وحثهم على الاقتداء بمثلهم للمساهمة في تطوير البلد والمجتمع وكانت هذه الغاية تتصدر جميع هذه النصوص، حتى اتخذت طابع النمط الأدبي المستقل، بل الشكل التبريري حتى في مواجهة الاتهام القائل بأن هذه النصوص كتبت للتسلية أو أنها بعيدة عن القيم والتعاليم الإسلامية ومن ناحية ثانية فإن تقارير الرحلات هذه تعكس أشكالية الاتصال "بالآخر"، وموقف الكاتب منها في

الوقت نفسه فكان لا بد من إيجاد توازن بين "الأصالة" و"الحداثة"، وبين الإعجاب بالغرب ومنجزاته التي أراد المرء اكتسابها والرغبة في الحفاظ على الهوية والقيم الذاتية التي بدت مهددة من خلال هذا الاتصال فأعمال الكاتبين المصريين رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك والكاتب اللبناني فارس الشدياق تقدم ثلاثة أمثلة لأدب الرحلات متباينة بشكل كبير.

العدد ٨٩- السنة السابعة والأربعون ٢٠٠٨

رائد النهضة رفاعة رافع الطهطاوي

يعدّ التقرير الذي كتبه المصري رفاعة الطهطاوي أوّل وأشهر تقرير يدون عن الرحلات فهذا العمل الذي يحمل عنواناً مسجعاً مثلما جرت العادة في ذلك الزمن "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، صدر عام ١٨٣٤ وكان يصف باريس والفرنسيين بأسلوب موضوعي، ويعتبر هذا النص أوّل تقرير حديث عن أوروبا في الأدب العربي.

كان الطهطاوي رائداً من روّاد النهضة في القرن التاسع عشر وعلى الرغم من دراسته في جامعة الأزهر العريقة بالقاهرة، التي تغلب على مناهجها المضامين الدينية التقليدية، إلا أنه كان قد تعرّف عبر معلمه حسن العطّار (يعتبر من أساتذة الأزهر القلائل الذين ينظرون نظرة إيجابية إلى التحديث الذي قام به محمد علي) على الأدب والثقافة الغربيين أثناء دراسته قبل أن يعيّن عام ١٨٢٦ أماماً لأوّل بعثة دراسية



❑ نابليون بونابرت

يبعثها محمد علي إلى باريس وكان المبعوث الوحيد الذي لم يدرس فرعاً تقنياً، إنما تفرّغ لترجمة طائفة كبيرة من النصوص التاريخية والفلسفية والأدبية والتقنية وبالتأكيد أن المشاركة في البعثة الطلابية كان أمراً حاسماً بالنسبة للتطوّر الفكري للطهطاوي ومسيرته الذاتية وقد وضعت البعثة من ناحية ثانية حجر الأساس لكي يتسلم المشاركون الآخرون أيضاً وظائف في الجيش والإدارة فيما بعد وكان الطهطاوي التي شهدتها مصر وذلك في مختلف المناصب الرسمية التي شغلها بصفته مثقفاً وموظفاً حكومياً، ولا سيما فيما يتعلّق بإصلاح النظام التعليمي ولعل التأثير الأكبر الذي مارسه هو إشرافه على مدرسة الألسن، وهي أوّل مدرسة كاننت

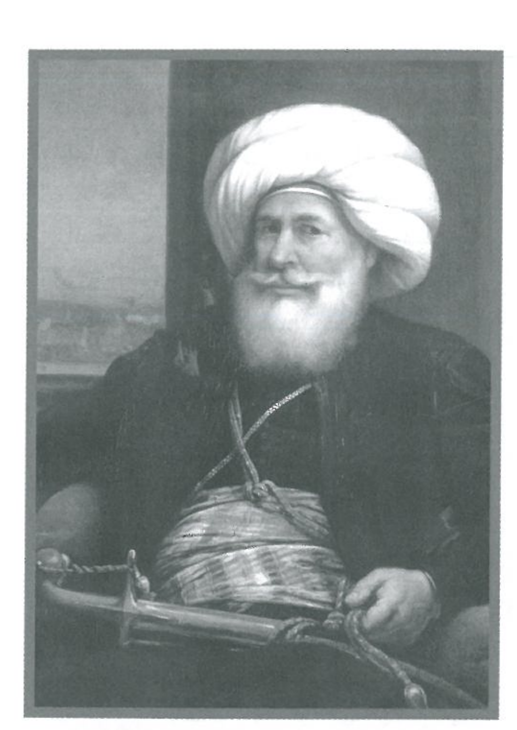
تقدم العلوم الأوروبية والمحلية إلى جانب تعلّم اللغات إضافة إلى ذلك عمل الطهطاوي ناشراً لجريدة الوقائع المصرية الرسمية ومترجماً لعدد من الأعمال التقنية والتاريخية والنصوص القانونية ومنها لائحة نابليون وهو يعتبر فضلاً عن ذلك من أهم مجددي اللغة العربية، عبر خلق لغة صحيفة وتأليف معجم مصطلحات قانونية في المسائل الحقوقية غير الإسلامية.

في مقدمة كتابه تخليص الإبريز، وليس فقط هنا، شدد الطهطاوي على الأهمية الجوهرية للعلم والتعليم، فكان مهتماً بتقديم المعلومات عن فرنسا بأسلوب رصين، باعتبارها إرشادات للمسافرين هدف الكاتب هو دفع القرّاء (المسلمين) لاكتساب العلوم والتقنيات التي بلغ بها الفرنسيون درجة عالية من الرقي، إذا كانت منسجمة بالطبع مع العادات المحليّة والفقه الإسلامي ولكي يكون كتابه مقروءاً من قبل الجميع فقد اختار لغة سلسلة خالية من الإطناب والاستطراد – وهذه إشارة إلى القطيعة مع الأشكال الفنية المألوفة للغة العربية ويتضمن النصّ وصفاً مجسّداً لمدينة باريس وسكّانها وموقعها الجغرافي ومناخها وحدائقها وحماماتها وشوارعها وساحاتها وقنواتها ووسائل لنقل فيها ويتميّز الناس هناك، حسب قول الطهطاوي بالذكاء والشغف بالمعرفة والرغبة في التنوّع، في مجال الأزياء مثلاً وهم لطيفون مع الغرباء، لكنه أقل كرماً من العرب، ويلتزمون بتعهداتهم، كما أنهم مجدون في العمل، لكنهم مبذرون بإفراط من أجل المتع الذاتية والرجال هناك عبيد للنساء اللواتي يتمتعن بالفتنة والجمال، والبعض منهن فطنات، لكنهن غير محتمشات وفيما يخصّ الدين فإن العقل هناك يقف فوق كلّ شيء، والديانات تعتبر في نظر الفرنسيين وسيلة لإرشاد الناس نحو الخير وإبعادهم عن الشرّ، وتحلّ الحضارة محل الديانات في نهاية المطاف ولاحظ الطهطاوي وبصورة إيجابية بأن كلّ فرد فرنسي يمارس شعائره الدينية بحريّة. ويتحدث الكتاب عن مختلف المواضيع مثل المنازل وأثاثها والطعام والشراب والملبس وأماكن التسلية والترفيه مثل المسرح والإوبرا والمراقص والحمّامات والعناية بالجسد والنظام الصحي والمؤسسات الإبداعية وحياة العمل والدين ورعاية العلوم وفي هذا السياق يصف الطهطاوي المكتبات والمتاحف وحدائق الحيوانات والنباتات والمراصد الفلكية والأكاديميات والمدارس الحكومية والمعاهد العليا والجرائد والمكتبات التجارية وتتناول فصول الكتاب الأخرى طبيعة الدراسة وثورة تموز لعام ١٨٣٠ التي شهدها الكاتب بنفسه، وتبويب العلوم لدى "الإفرنج" مثلما يسمى الفرنسيون ودستورها ويثني الطهطاوي على حصر سلطات الملك والمساواة بين المواطنين بالنظر إلى فرص استلام المناصب الحكومية، وكذلك الحرية الفردية وبالأخص حرية الرأي والمعتقد وحماية الملكية الشخصية.

ولم يتسعرض الطهطاوي الثقافة الفرنسية ونمط الحياة هناك من وجهة نظر الإنسان الشرقي الساذج الذي بدت له

تلك الأمور غريبة، إنما يصف ما يراه وما يعايشه محافظاً دائماً على مسافة معينة، لكنه يحاول أن يوصل للقارىء المصري ما يراه في فرنسا عبر مقارنة ما هو معروف لهذا القارىء في مصر نفسها ويتضح من خلال وصف المسرح الفرنسي صعوبة المهمة التي واجهها الطهطاوي عن وعي، فكان يفكر في الأسلوب الذي يعتمد عليه في طرح التصورات وهل يكون تقليدياً صرفاً أم مستورداً وهل يستند إلى ثقافة النخبة أم الثقافة الشعبية وهنا برز السؤال حول الأسلوب الذي تصاغ به الظواهر المجهولة في بلد الأصل، وهل يجوز اشتقاق تعريف جديد أو تحوير المصطلح أو استعارته عن الفرنسية أو استخدام مصطلح عربي (بل عثماني عند الضرورة) ومنحه دلالة جديدة.

شدد الطهطاوي دائماً على تقدم الأوروبيين في ميادين العلوم بيد أنه أحاط القارىء علماً بأن الفرنسيين أنفسهم يعترفون بأنهم تعلموا الكثير من العر في الماضي وعلى الرغم من الإعداب بالرقيّ الفرنسي فإن الاعتزاز باللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية بدا جليّاً وبالإشارة إلى ازدهار العلوم والفنون في عصر الخلفاء فإن الطهطاوي لّمح للقرّاء بأن العرب بتفوقون مبدئياً على الأوروبيين بسبب انتمائهم إلى الدين الحقيقي، وما عليهم سوى أن يلحقوا بركب التقدم العملي والتقني مثلما فعل محمد علي آنذاك عبر جلب الخبراء وإرسال البعثات الطلابية هذا الموقف عكس نزعة الإيمان بالتقدم التي تمسّك بها روّاد النهضة.



❑ محمد علي باشا

علي مبارك ابن الإصلاحات والتكنوقراطية·

وكما الطهطاوي رحل علي مبارك إلى فرنسا ضمن إطار بعثة طلابية وعلى الرغم من تطابق تفكير الكاتبين المصريين الموظفين في الدولة في الكثير من وجهات النظر، إلا هناك العديد من الاختلافات بينهما فمبارك شغل بعضاً من الوظائف الإدارية المهمة مثلما الحال مع الطهطاوي، وأراد إصلاح بلده بناءً على العلم والخبرة التي اكتسبها في فرنسا ومن خلال استخدام آخر الإنجازات العلمية والتقنية لكنه كثيراً ما كان يعتبر رجلاً تطبيقياً وتكنو قراطياً، وبصفته منافساً للطهطاوي فإن من المحتمل

أن الأخير سعى إلى نقله إلى السودان (١٨٥٠-١٨٥٤) ومبارك الذي كان يصغر الطهطاوي بجيل كامل استطاع الاستفادة من الاصلاحات التي أجراها محمد علي، فدرس في المدارس الحكومية الجديدة ودخل إلى مدرسة الهندسة في بولاق قبل أن يبعث إلى الدراسة في فرنسا (١٨٤٤-١٨٤٩) وهو لم يتمتع بخلفية تعليم إسلامية مثل الطهطاوي وكانت حججه علمانية على الأغلب ولم يشغل نفسه بالسؤال عما إذا كان نقل المنجزات الأوروبية يتوافق مع مبادىء الإسلام، كما فعل الشيخ الأزهري الطهطاوي.

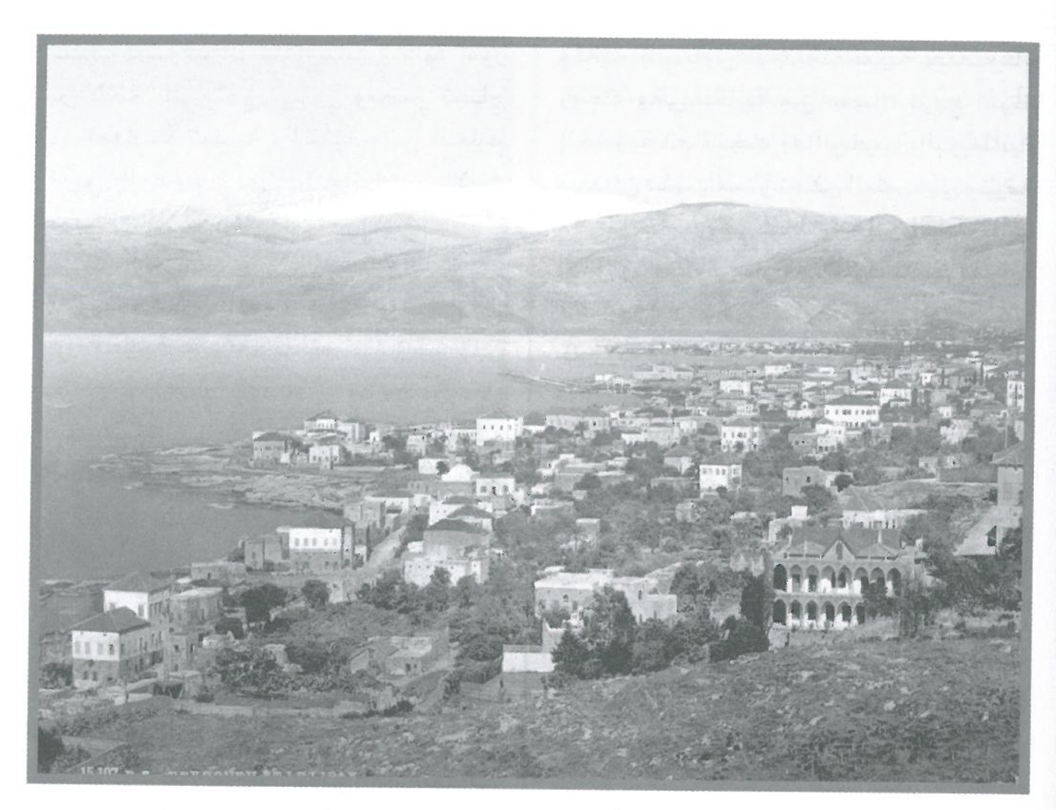
واختار مبارك شكلاً روائياً لتصوير أوروبا ويذكر كتّاب علم الدين (١٨٨٢) بالرواية أكثر مما يذكر بنصّ تاريخي جغرافي أو بأدب الرحلات وهو نصّ غير مألوف بالنسبة لكتابات مبارك الذي نشر أعمالاً تقنية وتاريخية بالدرجة الأولى، وغير مألوفة أيضاً بالنسبة لمصر في القرن التاسع عشر فهذا العمل الذي يقع في أربعة أجزاء، ولم ينشر في القاهرة، بل في الإسكندرية، يعد أوّل رواية تعليمية مصرية وأوّل عمل عربي حديث يعتمد أسلوب المحاورة وقد كتب بمزيج من النثر الواضح الذي يتخلله تضمني مسجوع وهو مقسّم في مسامرات تليها أهداف تعليمية على هيئة حكايات مسلية.

يتحدث الكتاب عن علم الدين وهو شيخ أزهري يدعى من قبل مستشرق إنجليزي، فيأتي إلى أوروبا بصحبة ولده برهان الدين ليشارك في تحقيق موسوعة لسان العرب اللغوية وتقدم أحداث الرحلة من القاهرة



❑ علي مبارك باشا

إلى الإسكندرية ومن ثمّ إلى مرسيليا فباريس فرصة لتناول مواضيع مختلفة، تطرح على شكل محاضرات أو محادثات ولم تقتصر المواضيع على أوروبا وحدها بل إنّ المسامرات تتعرض أحياناً إلى ما هو نظري مثل الجغرافيا والجيولوجيا والتاريخ والبراكين والأحجار الكريمة والمجموعة الحيوانية والنباتية والمشاهدات المباشرة كالقطارات والمقاهي والمسارح والمصارف أو البورصة الباريسية فينجح الكاتب في عرض صورة متزنة لأوروبا، حيث يعرض الصعوبات التي تواجه الشرقيين الذين يقيمون صلات وثيقة بأوروبا والأوروبيين، إضافة إلى العلاقة المعقدة بين "الشرقيين" والأوروبيين.



❑ بيروت في القرن التاسع عشر

مبارك أدخل في نصّه شخصيات أدبية نموذجية تعرض وجهات نظر وأفكار متباينة، فيقف المستشرق الإنجليزي، الذي لم يضع لها اسماً، طرفاً غربياً في مواجهة الشيخ الأزهري علم الدين، في حين يجد الشاب المصري برهان الدين قرينه الغربي في شخص جيمس/ يعقوب وأحياناً تظهر زوجة علم الدين تقية، لتصرّح بشيء ما ومنذ البداية يتضح للقارىء التفاوت الكبير بين الشخصيات الغربية والعربية: فبينما يقصر علم الدين المثقف الذكي معارفه على العلوم الإسلامية التقليدية وعلى اللغة العربية ومحيطه المباشر، يبدو المستشرق فهو يتقن اللغة العربية وقد طاف حول بعض الدول العربية بيد أن الأمر يبدو أكثر سوءاً بالنسبة للجيل المصري الشاب: ففي الوقت الذي نرى فيه جيمس الأكبر سنّاً من برهان الدين نفسه يقف أمامه جاهلاً تماماً، لا يعلم شيئاً حتى عن بلده والنتيجة المرعبة هي أن الشرق لا يعرف إلا القليل عن نفسه ولا يعلم شيئاً عن الغرب ولا حتى عن موقعه في العالم بينما يكون الأوروبي على العكس من ذلك، فهو متبحّر في ثقافته ومطلع على الشرق ويعلم بتفوّق الغرب ومع ذلك لا يجوز الأخذ بكل ما هو غربي دون تمحيص، لذا فإن التصورات الأوروبية عن الدين والأخلاق

وأسلوب تصرف النساء وثيابهن كلّها أمور غير لائقة بالمجتمع العربي ومصر تحتاج إلى المعارف العلمية والتقنية وإلى التعليم الغربي الحديث، دون التخلي عن الإرث العربي الإسلامي.

فارس الشدياق: الروح القلقة والمجادل العنيد

كذلك ينتمي التقرير الأدبي الذي نشر عام ١٨٥٥ في باريس تحت عنوان الساق على الساق لفارس الشدياق إلى هذا النمط من الكتابة، وإن جاءت صياغته أكثر جذرية. ويتميّز هذا الكاتب عن الكثير من المثقفين العرب الذين رحلوا إلى أوروبا في القرن التاسع عشر، يتميز بذهنيته المتوقدة ونزعته الجدلية فظروف حياته وأسفاره تختلف اختلافاً بيناً عن ظروف جميع القادمين إلى أوروبا وإذا ما صدقنا المصادر غير الدقيقة فيمكن رسم سيرة حياته على النحو التالي: ولد في لبنان عام ١٨٠٥ وهو ماروني الطائفة وقد اعتنق البروتستانتيه ثم هاجر إلى مصر عام ١٨٢٥ ودعي إلى مالطا عام ١٨٣٤، حيث أمضى ١٤ عاماً معلماً ومصححاً للبعثة الأمريكية البروتستانية (المشيخانية).

وفي عام ١٨٤٨ دعته society for the Propaganda of the Gospel، التي مقرها في لندن ليشغل وظيفة في إنجلترا ثم تنقّل في أماكن عديدة من بريطانيا خلال السنوات التسع اللاحقة، ومن ضمنها كمبردج وأوكسفورد، حيث اشتغل على ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية، وكانت تلك أوّل ترجمة حديثة وبعد وفاة زوجته وهي لبنانية من مصر، تزوّج امرأة إنجليزية ثمّ منحت له الجنسية البريطانية وبعد أن فشلت محاولته في العثور على وظيفة مدرس جامعي في إنجلترا غادر البلد خائب الأمل وذهب إلى باريس، حيث أمضى قرابة ٣٠ شهراً – وهي الفترة التي تعتبر الأكثر خصوبة في حياته، مع أنه كان يصارع هناك من أجل تدبير شؤون حياته المادية وفي عام ١٨٥٧ أقام الشدياق في تونس، حيث اعتنق الإسلام، ربما أملاً في الحصول على منصب حكومي لدى الإمبراطورية العثمانية وفعلاً دعاه السلطان العثماني عام ١٨٦٠ لإشغال وظيفة في إسطنبول، حيث أسس الشدياق أوّل جريدة حديثة باللغة العربية، جريدة الجوائب، وفي تلك المرحلة بدا ناجحاً ومستقراً اقتصادياً.

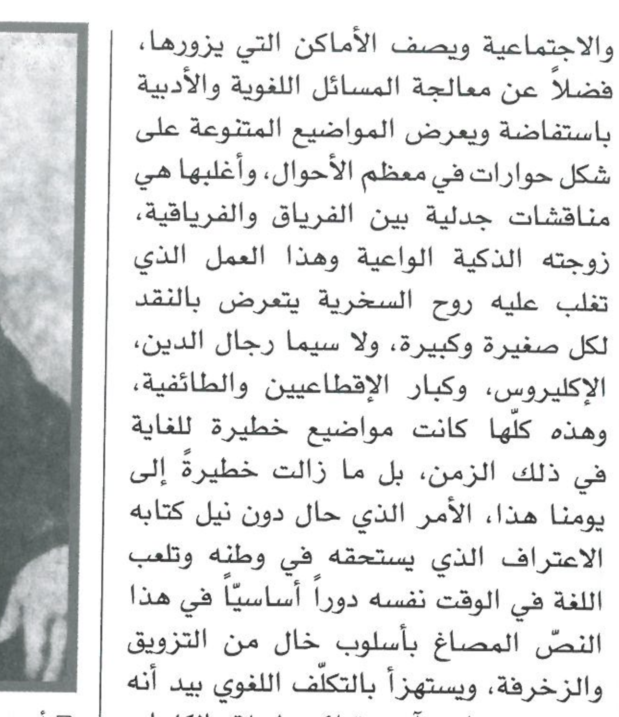
وإذا ما نظرنا إلى محطاته الحياتية فسيتضح بأن الشدياق لم يذهب إلى أوروبا لتحقيق هدف محدد ثم يعود إلى وطنه من جديد.

في كتاب "الساق على الساق" لا نعثر قطّ على وصف موضوعي منتظم لإنجلترا وفرنسا إنما هو على العكس من الطهطاوي لم يتعرّض إلى الموقع الجغرافي والمجتمع والسياسة، بل كان يطلع القارىء على وجهات نظر بطليه اللذين تغلب عليهما المزاجية وطبيعة التجربة والساق على الساق هو نص مركب لا تنطبق عليه المعايير والأشكال الأدبية المعروفة فالكاتب يصف حياة الفرياق، لكنه يناقش من ناحية أخرى القضايا الفلسفية

والاجتماعية ويصف الأماكن التي يزورها، فضلاً عن معالجة المسائل اللغوية والأدبية باستفاضة ويعرض المواضيع المتنوعة على شكل حوارات في معظم الأحوال، وأغلبها هي مناقشات جدلية بين الفرياق والفرياقية، زوجته الذكية الواعية وهذا العمل الذي تغلب عليه روح السخرية يتعرض بالنقد لكل صغيرة وكبيرة، ولا سيما رجال الدين، الإكليروس، وكبار الإقطاعيين والطائفية، وهذه كلّها كانت مواضيع خطيرة للغاية في ذلك الزمن، بل ما زالت خطيرةً إلى يومنا هذا، الأمر الذي حال دون نيل كتابه الاعتراف الذي يستحقه في وطنه وتلعب اللغة في الوقت نفسه دوراً أساسيّاً في هذا النصّ المصاغ بأسلوب خال من التزويق والزخرفة، ويستهزأ بالتكلّف اللغوي بيد أنه يضع من جانب آخر قوائم طويلة بالكلمات وإحصاء المترافات أو الكلمات التي يوحي لفظها بمعناها، الأمر الذي يبرّز ثراء اللغة العربية ويحافظ على تراثها في الوقت نفسه.

الجزء الأخير من أجزاء الكتاب الأربعة يتحدث عن إقامة الفرياق في أوروبا ومن خلال بطله وحده أو بصحبة زوجته وعائلته التي تغادر مالطا إلى لندن ثمّ باريس وعرضه للنقاشات التي تدور بينهم، يعكس الشدياق الجوانب المختلفة للحياة في أوروبا، وإنجازاتها، وكذلك الجوانب السلبية في أوروبا الحديثة، وهنا لا يبخل الشدياق في التعرّض للظروف الحياتية لأوروبا أثناء حقبة الثورة الصناعية تلك.

ومن الجدير بالذكر – وفي هذا السياق يبزّ الشدياق أقرانه كلّهم – أنه، وبفعل تجاربه الغنية، لا ينظر إلى أوروبا باعتبارها



□ أحمد فارس الشدياق

كتلة واحدة، إنما يتعامل معها باعتبارها مجموعة من الدلو ذات الطبقات الاجتماعية المختلفة ويصف الساق على الساق بريطانيا وصفاً حسناً وينتقد في الواقع حقيقة أن كلّ شيء هناك قائم على الربح والمنفعة ويفتقد إلى التهذيب والتلقائية في المشاعر والكرم والضيافة، إلا أنه يقدم عموماً صورة إيجابية عن إنجلترا ويمكن إرجاع هذا إلى أن بريطانيا كانت أوّل بلد يضيّفه في أوروبا حيث عاش وضعاً جيداً من خلال عمله بالترجمة، بينما كان وضعه المالي في باريس محرجاً إلى حدّ ما؛ ومن المرجح أنه حمل الأحكام الإنجليزية المسبقة على الفرنسيين فكان الشدياق يمتدح استقامة الإنجليز ومصداقيتهم وإخلاصهم وتعاملهم

المنفتح مع كلا الجنسين وقد أظهر اهتماماً خاصاً بالنساء الانجليزيات: فهن متواضعات ومخلصات ونظيفات، في حين شكا ليس فقط من عدم نظافة الفرنسيات، بل من حالة البؤس في الشوارع وانعدام الوقاية الصحية وتفكك القيم وحسب رأي الشدياق فإن الفرنسيات يبالغن في إظهار مفاتنهن ويتصرفن بتجبّر أمام أزواجهن ويطالبن بأسلوب حياة متهتك وعلى العكس من ذلك فإن المؤلف يكي المديح لأنماط الحياة الاجتماعية العامة المنظمة في انجلترا، حيث يتمتع جميع الناس بالحقوق نفسها وينعدم أي شكل من أشكال الاضطهاد والتعسّف من قبل الدولة.

وبغض النظر عن الفوارق بين النصوص الثلاثة فإنها تنتمي إلى المرحلة المبكرة من الاتصال المكثّف بين "الشرق" و"الغرب"، ولذلك فهي غير متأثرة نسبياً بالفجوة الكبيرة التي أحدثتها العلاقات الاستعمارية في نهاية القرن التاسع عشر وإذا كان هؤلاء الكتّاب قد رسموا صورة إيجابية إلى حدّ بعيد للقارة الأوروبية، فإن هذه الصورة قد تبدلت على مرّ الأعوام بعدما ازداد عدد تقارير الرحلات: فبات الأوروبيون يظهرون بصفتهم أسياداً مستعمرين بعيدين كلّ البعد عن التنوير، بل وينتاقض تعاملهم مع العالم الآخر خارج أوروبا تناقضاً كبيراً مع قيمهم المعلنة.

* * *

